المحاضرات والدروس

● في المساجد :

إذا عرفنا أن التعليم كان خاصا كله خلال كل الحكم العربى باستثناء فترة من الزمن هناك فى أواخر أيام مملكة غرناطة ، وحتى خلال هذه كان التعليم الخاص يواكب التعليم الرسمى ، أصبح من السهل علينا أن نتصور التنوع الذى كانت عليه الأمكنة المخصصة لإلقاء الدروس ، وبخاصة عندما يكون التعليم مجانا ، وعلى الأساتذة أن يحترفوا إلى جانبه مهنة أخرى يتعيشون منها ، فهم فى هذه الحالة يلقون دروسهم حيثما اتفق ، فى حجرة من البيت ، أو فى ركن من المصنع ، أو فى جانب من الحانوت ، أو إلى جوار شجرة فى البستان ، وغيرها من الأمكنة . أما التعليم الدينى فبطبيعته ، وللشخصيات التى تقوم على تدريسه ، كان المسجد الموضع المشترك لدروسه ، وفيه يلتقى الأساتذة بالطلاب ، ويرى ابن خلدون أن الأساتذة يجب أن يعطوا دروسهم فى المسجد ، فإذا كان يتبع السلطان مباشرة فلابد من استئذانه ، أما المساجد العادية فلا تحتاج إلى استئذان[1] .

لم تكن رسالة المسجد فى يوم من الأيام مقصورة على الصلاة فحسب ، ففيه يجتمع المسلمون للتشاور فى الأمور السياسية ، والقضايا ذات الأهمية المحلية ، وفيه تعلن أوامر عاهل الدولة ، وهو – أخيرا – مكان مفتوح للخدمات العامة . وفضلا عن ذلك يقدم للطلاب مكانا متسعا ومهيأ عندما يزيد عددهم ، ويمكن القول أن الدروس يمكن أن تعطى فى أى مكان ، ولكن المساجد كانت مكانها المعتاد ، سواء لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ، أو للدراسات العليا فى المواد العربية ، على حين ظلت البيوت بعامة مكانا لعلوم الأوائل ، أعنى الفلسفة والرياضيات وما يتصل بهما ، ولدروس الأساتذة الذين لا يودون أن يخرجوا على النظام الذى يفرضه تردد الناس على المساجد ، ويسهر على تنفيذه القائمون على شئونها .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ١ ص ٤٤٨ ، الترجمة الفرنسية .

وتأخذ الدروس فى البيوت ألوانا مختلفة ، تتوقف إلى حد كبير على قدرة الأستاذ وذوقه ، ابتداء من فراغ متواضع تعلو الحصيرة أرضه ، ويكفى بالكاد لجلوس الأستاذ وطلابه ، وانتهاء بالقاعات الفخيمة فرشت بالسجاد والبسط ، وتمتد حول جدرانها الأرائك المريحة ، وتقوم المدفئة فى جانب منها خلال أشهر الشتاء القارسة ، كما فى دار ابن كوثر الطليطلى .

ويختلف المسجد عن بقية الأمكنة فى شىء بسيط ، وهو أن كل إنسان يمكن أن يتخذ المكان الذى يستريح إليه ، مع مراعاة ألا يزعج الجالسين فى درس آخر عندما يبدأ درس درس جديد ، إذا توافقا فى الساعة والمكان .

● **نظام الدراسة :**

ومظاهر الدرس ليست فخيمة ولا كثيرة الأبهة ، فليس هناك كرسى ضخم يجلس عليه الأستاذ ، ويحيط به حاجز يفصله عن بقية الطلاب[1] ، وإنما يجلس الأستاذ على الأرض كالآخرين ، ومن الصعب تمييزه إذا لم يكن يحتل وسط الحلقة أو ما يقرب منها ، وحوله يلتف الطلاب ، وقد يفضل أن يواجه الطلاب ، وأن يسند ظهره إلى جدار أو عمود[2] ، والتلاميذ فى أكمل استعداد ، محابرهم أمامهم ، فيها القلم والدواة ، يكتبون ما يملى عليهم ، فى كراسات يسندونها على ركبهم ، أو يتابعون القراءة فى كتب يحملونها .

فإذا ألقيت النظر على الدرس وجدت فتيانا فى الخامسة عشرة من عمرهم ، وإلى جانبهم رجال متفاوتون فى أعمارهم ، ولكنهم فى زهوة نضجهم ، وبينهم من بلغ الخمسين أو تجاوزها ، عندما تكون مادة الدرس أو شهرة الأستاذ القائم على تدريسها اشتهرا على نحو لا يستطيع معه الفقهاء ولا علية القوم التخلف عن حضورها .

وكانت أعداد التلاميذ متفاوتة . تبدأ من التلميذ الفرد ، فأيوب بن إليان لم يكن يقبل على درسه أحد غير ابنه لأسباب ذكرناها من قبل[3] ، ثم تمضى صعدا حتى تبلغ ألف طالب ، على نحو ما كان فى **حلقة ابن عائذ** ، وكان هناك آخرون أيضا تضم دروسهم

---

(١) كان أحد الأساتذة فى مدينة فاس ، فى القرن الثامن الهجرى ، يستخدم هذا المقعد .

(٢) الإحاطة ، جـ ٣ ، الورقة ٥ .

(٣) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ٢٦٨ .

أعدادا غفيرة من الطلاب ، مثل درس **ابن أسد التميمى** ، **عبد الملك** بن زيادة الله ، [وكان « من أهل بيت جلالة من أهل الحديث والأدب ، إمام فى اللغة ، شاعر ، وله سماع بالأندلس » ، وكانت له رحلتان إلى المشرق ، و« لما رجع إلى قرطبة أملى ، فاجتمع إليه فى مجلس الإملاء خلق كثير ، فلما رأى كثرتهم أنشد :

إنى إذا احتـــوشتنى ألفُ محـــــبرةٍ   يكتبن حدّثنى طـــــــورا وأخبرنى

نـــادت بعقوتىَ الإقـــلامُ معلنـــــةً   هـــذى المفاخر لاقعبان من لبن][1]

وكذلك الحال فى درس يحيى بن عبد الله بن يحيى ... الليثى ، [« ورحل إليه الناس من جميع كور الأندلس » ، وسمع منه « جماعة من الشيوخ والكهول وطبقات من الناس » ، وأمير المؤمنين المؤيد بالله] [2] . ولا تظن أن هؤلاء المستمعين يجذبهم إلى الدرس مجرد المتعة بسماع خطيب مفوه ، بليغ العبارة ، مجنح الخيال ، يعرض لقضايا مثيرة ، ذات طابع سياسى أو اجتماعى أو دينى ، وإنما الحرص على دراسة كتاب معين ، ربما كان أكثر الكتب شيوعا فى المدارس ، مثل كتاب « الموطأ » للإمام مالك .

وكان جلوس الطلاب وانتظامهم فى الدرس متروكا لسلوكهم الشخصى ، وأدبهم الذاتى ، وحسن تقديرهم ، وما يحبون أن يكونوا عليه فيما بينهم ، وفى كل الحالات يستطيع أول من يصل أن يختار المكان الأقرب إلى الأستاذ ، وهو المكان المفضل دائما ، لا لكى يثبت حضوره ، وإنما حتى لا تفلت منه شاردة ولا واردة ، وحتى يستطيع أن يتوجه بالسؤال فى سهولة إذا ما شك فى شيء ما .

ويسبق الدرس عادة ، كما هو الحال فى أمر هام ، التوجه بالدعاء قليلا إلى الله ، وتلاوة بعض الآيات القرآنية المناسبة ، فإذا انتهوا منها بدأ صوت الأستاذ يرن فى أبهاء المسجد وبين الطلاب . وفى كثير من الدروس كان هناك قارئ من الطلاب[3] .

● **لغة التدريس :**

ومن الأهمية بمكان أن نحدد اللغة التى كانت تستخدم فى الشرح خلال الدرس ، ذلك أن إسبانيا الإسلامية كانت فى وضع يشبه إلى حد ما ما كانت عليه الحال فى أوربا

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٤٧٤ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة ١٥٩٧ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٤٦٣ ، ١٥٠١ ، والمعجم له أيضا ، التراجم ١٧ و١٠٨ ، ١٧٤ ، طبعة مدريد .

اللاتينية ، فالعلماء والأدباء يحررون كتبهم فى لغة فصيحة ودقيقة ، على حين يستخدم الناس فى الحديث العادى لهجة عامية ، تختلط فيها كل اللهجات اللاتينية المتحدثة فى شبه الجزيرة مع اللهجات العربية التى جاء بها جمهرة الفاتحين والوافدين ، وهم يختلفون قبائل وأنسابا وألوانا ، بين بربر ومصريين وسوريين ويمنيين ، وآخرين . وفى هذه اللهجة فإن الجملة العربية بالكاد حافظت على بنائها ، بينما شغلت الألفاظ اللاتينية النصف من معجمها تقريبا ، وأخذ جرسها ، ونطق الحروف ، وإيقاع الجملة وضعا وحيدا فى بابه ، حتى أن المشرقى يجد عسرا فى فهمها ، [ويذكر المقدسى ، وهو جغرافى غير أندلسى من القرن العاشر الميلادى ، أنه التقى فى مكة بحجاج أندلسيين ، « لغتهم عربية ، غير أنها منغلقة ، مخالفة لما ذكرنا فى الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومى »] [1] .

لقد اختاروا فى أوربا اللاتينية الكلاسية ، وعرضوها لأن تصبح نسيجا خشنا تعسا ، ولكن الإسبان كانوا أكثر فطنة منهم ، آثروا أن يستخدموا اللغة العربية ، وأن يلتزموا بكل قواعد النحو والصرف ، حين يرتلون القرآن الكريم ، أو يخطبون فى المجامع أو ينشدون الشعر ، أو يقرأون الرسائل الأدبية ، وغير ذلك . أما فى الحديث العادى ، حتى بين الطبقات العالية والمثقفين ، وفى شرح النصوص التى تقرأ فى الدرس ، فاستخدموا اللهجة الأندلسية ، لأنها بالنسبة لهم أسهل استخداما ، وأوضح بيانا .

وحتى النحويون أنفسهم ، وهم أحرص من غيرهم بحكم ثقافتهم على اللغة التى يعلمونها ، كان عليهم أن يوائموا بين رغبتهم وبين عادة الناس وذوق العصر ، ونحن نعرف أن الشلوبينى العالم النحوى الشهير ، ألف عديدا من كتب النحو التى نالت شهرة واسعة ، وحملت اسمه إلى كل أطراف العالم الإسلامى ، كان يتحدث بهذه اللهجة الأندلسية فى دروسه ، ولو أن واحدا من العرب سمع كلامه وهو يقرىء درسه لضحك يملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه ، لأنه كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب ، وأخذ يجرى على قوانين النحو ، استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات بالرسائل .

ومع ذلك ، لست أرى الأمر مضحكا ، ولا مزريا ، ولا مدعاة إلى السخرية ، ومهما كان وقعه على نفس البدوى ، لأن الشلوبينى كان يعرف أن اللهجة الإسبانية وسيلة

---

(١) مكتبة الجغرافيين العرب ، نشر دى خويه ، المقدسى ، ص٢٤٣ .

● وانظر كتابنا : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص٢٤ وما بعدها ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ . « المترجم » .

معيبة ، إذا نظرنا إليها من جانب النحو ، ولكنه يتكلم بها كى يفهم تلاميذه . أما المضحك حقا فهو أن يبذل الأستاذ جهده فى أن يتحدث اللغة الفصحى ، ليتجنب سخرية « العربى » ، السعيد بأنه يملك وحده أسرارها ، دون أن يكون فى ذرعه تفادى موجة من الضحك تنفجر بين تلاميذه ، لأنه لا يستطيع أن ينجو من الخطأ ، إلا بمعجزة ، وسوف يدرك هذا أشد الطلاب سذاجة .

لقد كان واجب الأستاذ أن يعمل على إنقاذ التعليم من العقبات التى تعترض طريقه ، وتحول دون نشره ، وتقف دون أن يصبح شعبيا ، من غير أن يرتفع بالعامية إلى مستوى الأعمال الأدبية ، أو أن يهبط بهذه فلا تصبح أهلا لأن تقف إلى جانب مثيلاتها فى المشرق ، دقة لغة وصفاء أسلوب ، لأن البساطة فى الشرح ، والتسامح فى الحوار ، لا يتناقض مع الحرص على قواعد اللغة ، والحفاظ على الأسلوب ، وانتقاء الألفاظ ، والاعتناء بكل ما هو مكتوب .

ويعنى ذلك أيضا أن الأستاذ يستجيب لرغائب الطالب ، وتنحصر فى فهم الشرح ليستفيد من الدرس ، فإذا فجأه متحذلق بخطبة فخيمة الألفاظ ، طنانة التعبير ، هدفها الوحيد أن يلمع معها وليس أن يعلم بها ، فسوف يقع ذلك فى ذهن الطالب فورا ، وإذا وعى أنه لن يخرج بأية فائدة من هذا الكلام الطويل ، وهو لا يذهب إلى الدرس طبقا للائحة ملزمة ، فلن يضيع وقته آسفا ، وسوف يمضى إلى أستاذ غيره ، فى مكان آخر . وإذا استمر الأستاذ فى تقعره فسيكون عليه بعد أيام قليلة أن يستمتع مبتهجا ، ووحيدا بأن يشرح درسه للأعمدة والجدران ، وسوف تردد وراءه صدى كلماته .

● **الأسئلة والأجوبة :**

ليس من الضرورى أن تحكم الدرس صرامة مصطنعة ، فيكون الجسم متوترا ، واللسان خافتا ، وإنما المهم إقبال الجميع عليه ، وهم يهتمون لصالحهم بالمحافظة على النظام فى شتى مظاهره . فإذا أملى الأستاذ ولم يسمع الطالب الكلمة بوضوح طلب من الأستاذ أن يعيدها ، فإذا شك فى إملائها ، أو كانت اسم علم غريبا أو نادرا استشاره ، وإذا لم يفهم جملة رجاه أن يعيدها أو يوضح معناها ، وكل هذا دون أن يختل النظام ، ولأن شوح الأستاذ ليس وعظا خلقيا ، ولا خطبة مثيرة ، سياسية أو دينية أو فلسفية ، يمكن أن تفقد عذوبتها إذا توقف المتكلم أثناءها فجأة ، فإنه يتسع للمقاطعة دون أدنى حرج ، ويستطيع الأستاذ بعدها أن يواصل الدرس بلا توقف ، فى هدوء جامعى صادق ،

من أستاذ يقول أشياء كى يتعلمها الآخرون . وقد سأل طالب **أستاذه ابن سكرة** السرقسطى ، عن كلمة التبست عليه فى كتاب كانوا يقرأون فيه ، فأجابه الأستاذ بكل تواضع : أنه لا يملك جوابا حاضرا لسؤاله ، ووعده بأن يدرس الأمر على مهل ، ليرضى رغبته على نحو أفضل ، رغم أنه كان واحدا من أشهر علماء عصره[1] .

ولكن هذا لا يعنى أن الأستاذ كان خاضعا لأهواء الطلاب ، وبخاصة إذا كان إنسانا مستقلا ، وذا شخصية علمية مرموقة ، ولديهم الأمثلة على دروس لا يسمع بها أحد ، كما هو الحال فى أيامنا هذه . وثمة أساتذة آخرون يضيقون بالأسئلة والأجوبة ، ولكن المعاصرين أنفسهم يعتبرونه شيئا غير عادى ، لأن الأساتذة الإسبان المسلمين لم يتعودوا أن يفعلوه[2] .

وكان احترام الطلاب لاستاذهم وتقديرهم له صادقا وعفويا ، لحرية الاختيار التى يتمتعون بها ، وفضلا عن ذلك لم يكن يخالطهم شيء من الخوف الذى يجتاح الطلاب حين يقفون أمام الأساتذة ليؤدوا الامتحان ، فلم تكن ثمة امتحانات ولا درجات ، وبالتالى لا يعانون من الدوافع التى تجعل من أدبهم واحترامهم شيئا نفعيا وموقوتا .

● **وقت الدرس :**

ويمتد الدرس الوقت الذى يراه الأستاذ وطلابه مناسبا ويتنوع على نحو شديد ، يبدأ من الاستشارة التى تعودها البعض ، وقد لا تستغرق لحظة ، ويمكن أن يمتد ساعات طوالا ، وإذا وعينا نصيحة **ابن خلدون** ، وهو رجل كون أفكاره فى هذا الجانب من خلال دراسته لواقع النظم التعليمية الإسبانية ، أدركنا أن زمن الدرس كان قصيرا عادة ، يتراوح بين ساعة وساعتين حتى لا يمل الطالب أو يشعر بارهاق . والدروس يومية ومتوالية ، لا يفصل بيتها أى فاصل ، ما عدا أيام الجمع والأعياد ، وحين يهطل المطر غزيرا ، وبعض الإجازات الأخرى المتفرقة ، مثل يوم سان خوان (القديس يوحنا) ، وكان الإسبان يحتفلون به جميعا ، مسلمين ومسيحيين .

ولم تكن القرى فى حاجة لأن تتنافس فيما بينها للحصول على مرسوم من الملك ، أو قرار من البابا ، يمنحها ميزة إنشاء مؤسسة تعليمية ، لأن الأستاذ والطلاب أحرار فى

---

(١) المعجم لابن الأبار ، ص ١١٩ طبعة مدريد .

(٢) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٠٩٨ طبعة مدريد .

اختيار المكان الذى يتخذونه للدرس ، أيان شاءوا ، فهم يختارون المدينة التى تقدم ظروفا أفضل للدراسة ، من حيث الإقامة والمعيشة ، وفيها يقيمون مؤسسة للتعليم .

● **صورة درس فى مسجد قرطبة :**

وفى بداية دولة الإسلام الإسبانى كانت قرطبة عاصمة الدولة ، وإليها يذهب الناس للدراسة ، أو بحثا عن مستقبل أفضل ، وفيها يحاول العائدون من رحلتهم إلى المشرق أن يعرضوا على مواطنيهم ما حملوه ، وأن يردوا إليهم بعض ما حصلوه ، ويقصدها كبار الأساتذة من المشارقة الذين يفدون إلى إسبانيا ، وقد بسط السلام والازدهار جناحيه على كل المقاطعات ، وعرفت الشوارع والطرق الأمن الكامل ، وبلغت الإدارة قدرا عاليا من الدقة ، وحققت الشرطة كفاءة ممتازة ، وتدفقت عليها أعداد هائلة من الذين خارجها ، وأصبحت العاصمة الأدبية أيضا إلى جانب أنها العاصمة السياسية ، وفيما بعد عندما سقطت عاصمة الخلافة ، وتناثرت الدولة ، برزت مدن أخرى تزاحمها هذه الأسبقية ، مثل : إشبيلية وغرناطة وبلنسية وسرقسطة وغيرها ، وقامت فى كل هذه المدن مراكز للتعليم ، ولكن أيا منها لم تستطع أبدا أن تنتزع من قرطبة الرئاسة التى انتهت إليها ، وواصل مسجد قرطبة الجامع رسالته كمركز مرموق للدراسات التقليدية العالمية فى إسبانيا . وكان هذا الجانب من رسالته فى أوج عظمته ، وقمة مجده ، شيئا رائعا يستحق التأمل والمشاهدة ، مشهد الطلاب يتدفقون إلى دروسهم ، عبر أبوابه التى تبلغ واحدا وعشرين ، بعد انتهاء صلاة الفجر ، وقد قدموا من مدن متنوعة ، وفى ملابس أشد تنوعا ، يجتازون تلك الغابة من الأعمدة ، ويكونون حلقا حول الأساتذة .

هنا فى هذا المسجد احتل **ابن عائذ** الطرطوشى عدة بلاطات ، وصوته لا يبلغ أسماع الألف شخص الذين تحلقوا حوله يودون سماع درسه ، ومن ثم اتخذ بعضهم مكانا مناسبا ، ومهمته أن يردد الكلمات التى يمليها الأستاذ ، حتى تبلغ نهاية الصفوف . فإذا توقف صدى هذه الأصوات تحدث لحظة لا تسمع فيها غير صرير الأقلام فوق الأوراق ، ويملى جملة أخرى ، ويردد المساعدون الجملة ، ويكتب الطلاب ، ويستمر الأمر على هذا النحو .

[وكان ابن عائذ قد درس فى مسقط رأسه طرطوشة ، وفى مدينة وشقة ، وقدم قرطبة فدرس على علمائها ، ورحل إلى المشرق فحج ، وسمع بمصر وبغداد والبصرة والأهواز وغيرها . « وجمع علما عظيما لم يجمعه أحد قبلة من أصحاب الرحل إلى

المشرق ، وتردد بالمشرق نحوا من اثنتين وعشرين سنة . وكتب عن طبقات المحدثين ، وكتب الناس عنه كثيرا بالمشرق . وقدم الأندلس فى رجب سنة تسع وستين وثلاثمائة ، فسمع منه ضروب من الناس ، وطبقات طلاب العلم ، وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول . وكان يملى فى المسجد الجامع كل يوم جمعة ، ولولا أن كتبه تليت عليه ، ولم تجتمع له ، لأتى من العلم والرواية بأمر معجز ، وسمعته يقول : لو عدت أيام مشيى فى المشرق ، وعدته كتبى التى كتبت هناك بخطى ، لكانت كتبى أكثر من أيامى بها . وكان حسن الكتاب ، صحيح القلم ، روى لنا من الأخبار والحكايات ما لم يكن عند غيره ، ولا أدخله أحد الأندلس قبله ، وكان حليما كريما جوابا ، شريف النفس ، مع سلامة دينه ، وحسن يقينه »] [1] .

وهناك أستاذ النحو يشرح فى لهجة عربية إسبانية قواعده وقضاياه ، وأستاذ ثالث يدرس الأدب ، يأخذ البيت من الشعر فيشرحه ، ثم يزنه عروضيا ، ويختار من بينها ما جاء فى أصعب البحور وفى مكان آخر نسمع صوتا شجيا ، من طالب يقرأ آى الذكر الحكيم مرتلا ومجودا ، ويتبعه رفاقه فيقرأون بعده فى ألواح من الخشب المصقول ، وبين قاعات المسجد العريضة ، وفى ركن منزو منها نرى ثلاث حلقات من الأطفال ، يرددون للمرة المئة سورة « الفاتحة » ، أول سورة من القرآن الكريم ، أمام معلمهم ، وهو يلوح لهم بالزخمة نافذ الصبر ، يحذرهم أن يعاودوا الخطأ فى نطق الكلمات التى سبق أن صححها لهم[2] .

وخلال ذلك كله تنفض حلق ، وتتكون أخرى حول أستاذ جديد ، وبين الزحام والضجيج ، وطوائف الذاهبين وقد أنهوا دروسهم ، والقادمين ليبدأوها ، لا ترى أى فرد من رجال الشرطة ، وإنما حراس المسجد فحسب ، يتجولون صامتين بين جمهرة الدارسين ، وليسوا فى حاجة لأن يتدخلوا فى شىء ، لأن رواد المسجد طلابا أو غيرهم يدركون ، وتعودوا ، أن الحفاظ على النظام شرط جوهرى للتمتع بالحرية ، ومن هنا كان حرص الجميع عليه .

---

(١) التكملة ، الترجمة ١٥٣٦ ، وابن الفرضى ، الترجمة ١٥٩٩ .

● والزيادة مأخوذة من ابن الفرضى . « المترجم » .

(٢) من بين السبع والعشرين مدرسة التى أنشأها الحكم الثانى ثلاث منها كانت حول المسجد الجامع ، والبقية فى ضواح مختلفة من المدينة انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٢٥٦ .

وعندما ينادى المؤذن للصلاة يتوقف كل شيء ، ويتحول الناس إلى صفوف ، وبعد العصر تبدأ الدراسة من جديد ، وتستمر حتى صلاة المغرب ، ومعها ينتهى اليوم الدراسى . وفى هذه اللحظة تضاء مصابيح المقصورة ، وتسطع مئات القناديل متوهجة ، تضيء المسجد الجامع أثناء الليل ، حتى ولو لم تكن هذه ليلة القدر .

وعندما هبط **ابن الفاسى** ، إبراهيم بن جعفر أبو إسحاق ، مدينة قرطبة ، ولم يستطع أن يتوقف طويلا بها ، فتح فصلا دائما بالمسجد الجامع ، ولازم الناس سماعه ليلا نهارا وكانوا يبيتون بالمقصورة ، لكي ينتهى من تدريس كتابه « جامع الترمذى » فى الحديث ، والأستاذ وطلابه يقرأون ويقرأون ، دون أن يستريحوا ، ولا يتوقفون غير لحظات قصار حين يدخل المؤمنون الجامع ليؤدوا الصلاة[1] .

● **أمكنة أخرى :**

لكن النشاط التعليمى لم يكن مقصورا على المسجد الجامع فحسب ، وإنما كان الشيء نفسه يحدث فى كثير من المساجد الأخرى ، وفى خارجها وعرفت البيوت كثيرا من المدارس يجرى التعليم فيها على نحو ما يجرى فى المساجد ، وفى عيادات الأطباء حيث يلقى هؤلاء طلابهم يدرسون لهم الطب وما يتصل به ، ولن نقول شيئا عن المكتبات المنزوية فى بيوت الخاصة حيث يتدارسون الفلسفة ، ولن ندخل الكنائس المسيحية حيث يقرأون أدب « فيرجيل Virgile » فى اللغة اللاتينية ، ومؤلفين آخرين يعودون إلى عصور ما قبل المسيحية ، ولا فى بيع اليهود حيث يدرسون العهد القديم باللغة العبرية .

ومن الحق أن نقرر أن الرغبة القوية فى تعليم الأدب وإجادته أفسحت الطريق واسعا وعريضا أمام المراكز التربوية لتبلغ قمة العظمة ، وأوج الازدهار .

(١) المعجم لابن الأبار ، ص ٥٣ ، طبعة الدار المصرية .